التصنيف البنيوي للتغيرات الاصطلاحية العربية

د. إسماعيل عبد الناصر(*)

التعبير الاصطلاحي لغةً واصطلاحًا

التعبير الاصطلاحي لغةً:

التعبير: «الإعراب عما في النفس بالكلام أو الحركات أو قسمات الوجه»(1).

والاصطلاح: «من حيث الصيغة مصدر، العرف الخاص، أي اتفاق طائفة مخصوصة على وضع أو لفظ أو شيء»(2).

التعبير الاصطلاحي اصطلاحًا:

«هو طريقة خاصة في التعبير مؤداها: تأليف كلمات في عبارة تتميّز بها لغة دون غيرها من اللغات، مثل ذلك في اللغة العربية: «بالرفاء والبنين» في التهنئة بالزواج»(3).

ومن الناحية التركيبية فالتعبير: هو أصغر وحدة دلالية في بعض الآراء إلا أنّه يعد الوحدة الدلالية الأكثر شمولية في بعض الآراء الأخرى؛ لأنّه مركب من وحدات دلالية على مستوى الكلمة، فهناك من اعتبر كثيرًا من الكلمات المفردة تعبيرات اصطلاحية بحد ذاتها، بحيث يكون تعريف المصطلح هو:

(*) كلية الآداب والتربية ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة التحدي ـ سرت ـ ليبيا.

(1) خليل الجر: المعجم العربي الحديث، مكتبة لاروس، باريس، 1987، ص 308.

(2) المرجع نفسه، ص 108.

(3) مجدي وهبة / كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 242.

«نمط تعبيري خاص بلغة ما، يتميّز بالثبات، ويتكوّن من كلمة أو أكثر، تحولت عن معناها الحرفي إلى معنى مغاير اصطلحت عليه الجماعة اللغوية»[1]، وأول الذين اعتبروا كثيرًا من الكلمات المفردة تعبيرات اصطلاحية بحد ذاتها اللغوي تشارلز هوكيت Hockett، فيعد بذلك أول من خرج عن اجتماع اللغويين الذين تعاملوا مع ظاهرة العبارة الاصطلاحية كونها مؤلفة من كلمتين فأكثر.[2]

أما تعريف العبارة (وليس التعبير) الاصطلاحية فهي:

«مجموعة من الكلمات لا يمكن استنتاج معناها من المعاني المعتادة للكلمات المفردة التي تتكون منها»[3].

وهذا النوع من التعبير (المكون من كلمة واحدة) هو ما أطلق عليه أحمد أبو سعد: (التعبير الأحادي)، وأطلق عليه الدكتور محمد العبد: (تعبيرات الوحدة المركزية) وهي التعبيرات التي تعتمد على وحدة لغوية أساسية، تعد بمثابة المركز الذي يدور حوله معنى التعبير العام، وإن تغيّر المعنى النهائي من صورة إلى أخرى تبعًا للوحدات اللغوية الهامشية سواء أكانت أفعالًا أم أسماءً، ومن الوحدات المركزية على سبيل المثال (العصا، الحبل).[4]

ويسوق لنا أبياتًا من الشعر الجاهلي نذكر بعضاً منها أمثلة على هذا النوع من أنماط التعبير الاصطلاحي العديدة ـ التي سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في ثنايا هذا البحث ـ ومن نماذج (العصا) تعبيرًا اصطلاحيًا قول زهير[5]:

فلما وردن الماء زرقًا جمامه ـ وضعن عصي الحاضر المتخيم

(1) كريم حسام الدين: التعبير الاصطلاحي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1985، ص 34.

(2) ينظر حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، دمشق، 2000، ص 18.

(3) Oxford wordpower, oxford university press, 1999, p. 377.

(4) ينظر محمد العبد: إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص 110.

(5) معلقته في شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، اعتنى بجمعه وتصحيحه أحمد بن الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت ص ص 80 – 87، ص 80.

ووضع العصا تعبير عن الاستقرار بالمكان والإقامة فيه.

ومن الوحدات اللغوية المركزية (الحبل) يذكر لنا قول الأعشى[1]:

بانت سعاد وأمسى حبلها رابا وأحدث النأي شوقًا وأوصابا

وانقطاع الحبل دلالة على بعد المحبوبة وانقطاع وصلها.

وما يسمى في وقتنا الحاضر باسم «التعبير الاصطلاحي» «Idiom» المأخوذ بدوره من الكلمة اللاتينية «Idioma» والذي يعني غرابة التركيب اللغوي[2]، وهذا التركيب الغريب يشمل كل جملة تتجاوز فيها الكلمات معانيها الأصلية الدالة عليها في اللغة وهي منعزلة عن سياقها واستعمالها في تركيب إلى معان أخرى تكتسبها من طريق التركيب أو الاستعمال، وهي ما يعرف بالتعبير السياقي، أي الألفاظ المركبة التي يتوقف فهم معناها على سياق تركيبها، كما تشمل كل تعبير من لفظة أو لفظتين أو أكثر، تنظم معًا في الوضع الذي يقتضيه علم النحو، ولكنه في النهاية يؤدي إلى دلالة تختلف عما يقتضيه ظاهر التركيب[3]، وهذا التركيب اللغوي ـ أيضًا ـ هو نوع من التراكيب التي تم استخدامها أول مرة سواء بمبادرة فردية، تعبيرًا عن تجربة ذاتية مثل: «رجع بخفي حنين»، أو كترجمة لتعبير اصطلاحي أجنبي قبل أن يأخذ طريقه إلى اللغة العربية ويشيع استخدامه فيها مثل: «ذر الرماد في العيون»، بحيث يصبح جزء لا يتجزأ منها وتكون دلالته مغايرة تمامًا لمدلوله الحرفي أو المنطقي الذي استخدم أساسًا من أجله.[4]

وقد حدد اللغويون عدة سمات أساسية للتعبير الاصطلاحي هي[5]:

1- صعوبة الترجمة الحرفية.

2- ثبات التعبير الاصطلاحي.

(1) شرح ديوانه، تحقيق كامل سليمان، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، د.ت، ص 16.

(2) ينظر حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 7.

(3) ينظر أحمد أبو سعد: معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولد، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، 1987، ص 5.

(4) ينظر حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 158.

(5) ينظر كريم حسام الدين: التعبير الصطلاحي، مرجع سابق، ص ص 35 - 43 .

3- إمكانية اقتصار التعبير الاصطلاحي على كلمة واحدة.

4- تحول كلمات التعبير الاصطلاحي عن معناها الحرفي إلى معنى متفق عليه من الجماعة اللغوية.

5- عدم القابلية للتجزئة.

وأهم ما تتصف به التعبيرات الاصطلاحية ـ إلى جانب طبيعتها المجازية ـ توزيع أشكالها البنيوية (من حيث الصياغة) إلى النمطين التركيبيين الآتيين:

1- **الجملة:** وهي الشكل المركب من أكثر من كلمتين، أو ما يمكن أن نطلق عليه التعبيرات التي تأخذ شكل الأسلوب اللغوي، ويكون تركيبها اللغوي من عدّة كلمات مقصودًا لغاية أسلوبية، وهي تحسين الأسلوب وتجميله، ولا يعول عليه أساسًا ـ بهدف الاختزال ـ فقد يمكن أداء معنى كل منها بكلمة واحدة، إذا أردنا ذلك مثل: «ضرب به عرض الحائط» بمعنى أهمله، أو «وضعت الحرب أوزارها» بمعنى انتهت.[1]

2- **الشكل البسيط:** وهو التركيب المكون من كلمة واحدة، أو من كلمتين تحمل كل منهما دلالة خاصة مألوفة للمتكلم وللسامع، ولكنهما تتحولان معًا إلى معنى جديد غير معنييهما المتعارف عليه نتيجة لعلاقة المصاحبة كما في:

أ- تعبيرات مكونة من كلمة واحدة مثل: «الأسودان» بمعنى الحية والعقرب، «القمران» بمعنى الشمس والقمر.

ب- تعبيرات مكونة من كلمتين مثل: «حقن الدماء «بمعنى وقف القتال، «سفينة نوح» بمعنى الشيء الجامع «جبر العظم «بمعنى يزيل الآلام.

ويدخل ضمن هذا الشكل من التراكيب التعبيرات المصدرة بالكلمات: (أب وأم وابن وبنت وأخ) التي نحصل على دلالات جديدة نتيجة لأضافتها إلى غيرها، مثل: «أم الخبائث» الخمر، «ابن السبيل» المسافر، «بنت البيد» الناقة، ... إلخ.

(1) ينظر محمد العبد: إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص ص 117، 118.

ومثل هذا النوع من التعبير يلجأ إليه الناس عادةً لأمرين:

أولًا: تعد التعبيرات الاصطلاحية (Idiom) مادة جذابة تتصدر الأنباء والصحف، وفي تلك الأحاديث التي تتسم بشيء من الرسمية وغيرها عندما تكون هذه التعبيرات ذات معان ودلالات عميقة، والتي من شأنها أن تزيد في شحنة هذه المعاني التي يمكن أن تحملها تراكيبها، ولذلك يلجأ الكاتب./ المتكلم (مستخدم التعبير) إلى مثل هذه الكلاشيهات ليرصّع بها عمله/ حديثه حتى يضفي عليه سمة الجاذبية والقبول[1] كتعبيرهم عن العداوة بـ «بينهما ما صنع الحداد»... إلخ.

ثانيًا: ليتلطفوا في الحديث ويتأدبوا في المشافهة، فلا يذكرون الشيء باسمه تجنبًا للتعبير المباشر عنه، وإنما يؤدونه بأسلوب غير مباشر مبتعدين عما يُستهجن ذكره، ويُستقبح نشره، ويستحى من تسميته، أو يُتطير منه، أو لاعتبارات أخرى، قد تكون سياسية أو ثقافية ... إلى الكناية عنه بألفاظ مقبولة ... ككنايتهم عن الأفعال التي تستتر عن العيون عادة نحو قضاء الحاجة والجماع بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها، تؤدي معناها، وتفصح عن مغزاها ... وكتركهم اللفظ المتطيّر من ذكره إلى ما هو أجمل منه في استعمالهم التعبير «لحق بالرفيق الأعلى» أو «لحق باللطيف الخبير» أو «انتقل إلى رحمة الله» بدلًا من قولهم مات.[2]

خصائص التعبير الاصطلاحي

«إنّ مسألة التعرّف أو تحديد خصائص التعبير الاصطلاحي بوجه عام أو خاصية واحدة تجمع جميع التعبيرات الاصطلاحية في لغة ما وتستبعد بالتالي جميع التعبيرات غير الاصطلاحية من أصعب المشكلات التي تواجه أي باحث[3]، وتكمن هذه الصعوبة في انقسام اللغويين الأجانب إلى مجموعتين، حيث قامت المجموعة الأولى بأبحاثها حول مسألة اصطلاحية العبارة/ التعبير من أجل الكشف عن الطبيعة الخاصة للغة ما عن طريق تباين تلك الاصطلاحية، وكان

(1) ينظر نبيل راغب: أساسيات العمل الصحفي، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، القاهرة، 1999، ص 108.
(2) ينظر أحمد أبو سعد: معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية، مرجع سابق، ص 7.
(3) حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 40.

منهجهما ينطوي على مضامين لغوية نفسية قوية، حيث انصب اهتمام هذه المجموعة التي تمثلها: لوغان سميث (1925) Logan Smith، وميورات روبرتس (1944) Murat Raberts، انصب على مسألة إبراز الطبيعة الخاصة للغة الإنجليزية، كما تطرح نفسها في التعبيرات الاصطلاحية الإنجليزية، أكثر من اختباره للخصائص الأبرز للاصطلاحية بوجه عام.

أما المجموعة الأخرى فكان اهتمامها منصبًا على الجانب البنيوي للتعبيرات الاصطلاحية، وعليه فقد عمات على تعريف تلك التعبيرات من خلال خصائصها البنيوية أكثر من أية خصائص أخرى.

وهذا التوجه مكّن اللغوي من التوصّل إلى تصنيف نوعي لتلك التعبيرات بناءً على الخصائص التي اعتمدها اللغوي معيارًا لدراسته[1]، ومن أبرز لغويي المجموعة الثانية (تشارلز هوكيت 1958 Charles Hockett)، (وآلان هيلي 1968 Alan Healey) (وآدم مكاي 1972 Adam Makkai).

فقد اعتمد هؤلاء اللغويون خمس خصائص بنيوية للتعبيرات الاصطلاحية، هي:

1- معنى التعبير الاصطلاحي لا يتأتى من الوظيفة البنيوية اللغوية لمكوناته ؛ لأنّ التعبير الاصطلاحي ـ كما عرفنا سابقًا ـ لا يستمد معناه من الكلمات المكونة له وإنما من اتفاق الجماعة اللغوية أو الاصطلاح والتعارف.(!)

2- التعبير الاصطلاحي وحدة لغوية إما أن يكون لها نظير (مشترك لفظي) أو على الأقل مكونات من المفردات الحرفية المعنى بالرغم من كون التعبير لا يفسّر حرفيًا، أي صعوبة الترجمة الحرفية للتعبير[2].

3- التعبيرات الاصطلاحية لا تتقبل في معظم الأحيان أي نوع من أنواع التغيير مثل الاستبدال أو التقديم والتأخير؛ لأنّ هذا يؤدي إلى تحطيم معنى التعبير تمامًا، ولا علاقة في هذا بقواعد اللغة وإنما يعود الأمر في ذلك إلى التواضع والاتفاق.

(1) المرجع نفسه، ص ص 40، 41. يراجع المعنى الاصطلاحي للتعبير، ص 1 من مذا البحث.
(2) ينظر كريم حسام الدين: التعبير الاصطلاحي، مرجع سابق، ص 35.

4- التعبير الاصطلاحي يحمل طابع النمط المنظم الراسخ الجذور الذي يعتبر جزءً من حضارة أو ثقافة أمة ما، وإذا قارنا على سبيل المثال التعبير الاصطلاحي والألفاظ المفردة بالنسبة للتغير الدلالي، فستجد أنّ التعبير الاصطلاحي لا يخضع للتغير الدلالي السريع الذي تعرفه الألفاظ المفردة، فالتعبير يتمتع بقدرة على الثبات الدلالي.[1]

وعلى الرغم من ذلك يجب علينا التسليم بحقيقة كون الاصطلاحية ظاهرة بالغة التعقيد لدرجة يصعب تعريفها من خلال خاصية واحدة، وهذه الحقيقة أقرت بها ـ والكلام الدكتور حسين قويدر ـ عدة أعمال مسح ميدانية قام بها لغويون أمثال: روسماري جلاسر 1980 Rosmarie Glasser، ودورثا هلر 1980 Dorothea Heller، اللتين أكدتا بأنّ الاصطلاحية يجب ألا ننظر إليها على أنّها نوع من التجانس الناجم عن وحدات متراصة وتناغم كلي، ولكن كفاءات تتداخل فيما بين بعضها بعضًا في الاستخدام الفعلي أكثر منها كسلم متدرج[2].

إلا أنّه في نهاية الأمر تمّ التعارف على أنّ التعبيرات الاصطلاحية تجمع خصائص العديد من أنواع الظواهر اللغوية مثل:

1- الاشتراك اللفظي، حيث نجد للتعبير الواحد غير معنى، وفقًا للسياق.

2- تعدد معاني الكلمة الواحدة.

3- الصورة البيانية (استعارة ـ تشبيه ـ كناية).

4- الترادف.

ومع ذلك فهذه الخصائص ليست مطلقة، ويفضل أن يتم تعريفها عن طريق معايير متعددة يمثل كل منها واحدة من تلك الخصائص، ومن هذا المنطلق فإنّ بعض التعبيرات تمتلك خصائص مميزة أكثر من غيرها، وهذا يتجلى في التفاوت الحاصل في درجات التعبيرات الاصطلاحية من حيث غموضها وسهولة التعرف عليها[3].

(1) ينظر حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، هامش ص 41.
(2) ينظر المرجع نفسه، ص 42.
(3) المرجع نفسه.

ولا تزال هذه الخصائص (السمات) تعد المعيار الأمثل في تمييز ما يعرف بالتعبير الاصطلاحي عن غيره من التراكيب اللغوية.

وعلى الرغم مما ذكر من عدم تقبل التعبيرات الاصطلاحية ـ في كثير من الأحيان ـ أي نوع من أنواع التغيير[1]، على اعتبار أنّ التعبير الاصطلاحي وحدة بنيوية مترابطة الألفاظ، يتميّز بالثبات وعدم التغيير في تركيبه، فهذا الثبات الذي يتمتع به هو أحد الخصائص المميزة له فأي تغيير في تركيبه لا يحفظ له معناه الاصطلاحي[2]وعلى الرغم من ذلك يلاحظ في بعض التعبيرات التي تعرفها اللغة (أية لغة) أنّها تسمح بالعديد من العمليات التركيبية (التغيير) من حذف أو تعديل أو استبدال في بعض أجزائها، أو عكسها (تقديم وتأخير) بهدف النقد اللاذع، أو الحصول على تأثيرات مفاجئة، بشروط خاصة ومحكمة جدًا، وفي تعبيرات محددة دون غيرها أيضًا، دون أن تفقد هذه التعبيرات معناها الاصطلاحي، وتوصف مثل هذه التعبيرات (بالمرنة) ؛ مثل: (أضيف وقودًا إلى النار) التعبير الاصطلاحي المعروف، فمن الممكن أن يصبح (أضف وقودًا إلى اللهب)، ولكن مثل هذا التغيير عادةً لا يحدث ـ كما عرفنا ـ إلا بقيود.[3]

وبناءً على ذلك فقد قسم بعض الباحثين التعبيرات الاصطلاحية إلى قسمين:

تعبيرات اصطلاحية مغلقة أو ثابتة (ليست خاضعة لأية قاعدة تركيبية).

(Closed idioms) or (Fixed idioms)، وفي المقابل التعبيرات الاصطلاحية المفتوحة أو المرنة (خاضعة للتغيير (26) (Flexible idioms) or (Open idiom))[4].

فالتعبيرات المغلقة ظاهرة تركيبية أصلية في بنية التعبيرات الاصطلاحية، أما التعبيرات

(1) تراجع ص (4) من هذا البحث.

(2) Anne Abeille; the flexibility of French idioms Arepres entation with lexicalalized tree Adijoining Grammar, in; idioms; Structural and psychological perspectwives, Hill sdale, new jersey, 1995, pp 15- 22, p. 16.

(3) Marlies E.C. vande voort . and wietske vonk (you don,t Die lmmediately when you kickan Empty Bucket; Aprocessing view wonsemantic and syntactic characteristics of idioms), pp 283 – 299 , p 284.

(4) Anne Abelle, p 15.

الاصطلاحية المفتوحة (المرنة)، فيمكن أن تأخذ هذه المرونة التي تبديها أشكالًا مختلفة تعد أيضًا ظواهر تركيبية يمكن أن أطلق عليها:

(ظواهر تركيبية طارئة على بنية التعبير الاصطلاحي الأصلي)

أولًا: التعبيرات الاصطلاحية أحادية الصياغة وقد رأى الباحث تقسيمها إلى قسمين:

1- تعبيرات اصطلاحية جامدة:

وهذا النوع من التعبيرات جامد جمودًا تامًا فلا يقبل أي نوع من أنواع التغيير، وإذا حاولنا إجراء أي تغيير مهما تخيلنا بساطته فإنّ ذلك يؤدّي إلى تحطيم معنى التعبير تمامًا، وتمثلها التعبيرات التالية: (شعرة معاوية / دموع التماسيح / قميص عثمان / على قدم وساق / أضعف الإيمان / فرسا رهان / صبر أيوب / بيت القصيد / رفقًا بالقوارير/ الطيور على أشكالها تقع / لاحياة لمن تنادي / مرور الكرام / ثالثة الأثافي / الطامة الكبرى/ الكر والفر/ كل يغني على ليلاه / حطام الدنيا / ضيق ذات اليد/ سحابة صيف / رأس السنة / صدر الإسلام / قاب قوسين / قيد أنملة / عصا موسى / السواد الأعظم / المعنى في بطن الشاعر / مسك الختام/ وضعت الحرب أوزارها / على بكرة أبيهم / شاردة وواردة / غيض من فيض ... إلخ).

فهذه التعبيرات ـ كما أشرت سابقًا ـ جامدة جمودًا تامًا، حيث إنّها لا تقبل مجرد تحويلها من المؤنث إلى المذكر وبالعكس، أو من الجمع (في حالة ما كانت جمعًا) إلى المفرد وبالعكس.

ونأخذ من هذه التعبيرات أمثلة لتوضيح هذه السمة:

(شعرة معاوية):

يتعذر قولنا في هذا التعبير الاصطلاحي: (شعر معاوية، أو شعرة أبي سفيان).

(قميص عثمان):

يتعذر قولنا: (قمصان عثمان، أو قميص عمر).

(أضعف الإيمان):

يتعذر قولنا: (أقوى الإيمان، وأضعف الكفر).

(رفقًا بالقوارير):

يتعذر قولنا: (رفقًا بالقارورة، أو رفقًا بالقارورتين، أو رفقًا بالقاروورات).

(سحابة صيف):

يتعذر قولنا: (سحابة ربيع، أو سحابة خريف، أو غيمة شتاء).

(السواد الأعظم):

يتعذر قولنا: (البياض الأعظم، أو السواد العظيم).

(مرور الكرام):

يتعذر قولنا: (مرور الكريم، أو مرور الكريمة، أو مرور الكريمات).

(المعنى في بطن الشاعر):

يتعذّر قولنا: (المعنى في بطن الشاعرة، أو المعاني في بطون الشعراء، أو المعاني في بطن الشاعر).

ويقاس ذلك على كل التعبيرات المذكورة تحت هذا المسمى (التعبيرات الاصطلاحية الجامدة).

في حين أنّ هناك تعبيرات أخرى أحادية الصياغة أيضًا (لا تقبل الاستبدال، أو الحذف، أو التعديل، أو التقديم والتأخير) إلا أنّها تعبيرات أقل جمودًا من سابقاتها بقبولها نوعًا من المطابقة في بعض النواحي نستطيع أن نطلق عليها تعبيرات اصطلاحية مغلقة، وهي تلك التعبيرات التي تمثل الشكل الآخر من شكلي التعبيرات الأحادية الصياغة وهي:

2- تعبيرات اصطلاحية مغلقة: وتمثلها التعبيرات التالية:

(يعرف من أين تؤكل الكتف / رابط الجأش / مكتوف اليدين / مهيض الجناح / طعن في السن / ضرب أخماسًا في أسداس / ركب رأسه / وافته المنية / لا يعرف الغث من السمين / بلغ من العمر أرذله / لفظ أنفاسه / مسقط رأسه / عابر سبيل / شد الرحال /

عض على النواجذ / رجع بخفي حنين / طاش سهمه / ترك له الحبل على الغارب / ألقى الكلام على عواهنه / ألقمه حجرًا / سُقط في يده / رفع عقيرته / وشهد شاهد من أهلها/ قطب حاجبيه / وضع يده على قلبه / ارتعدت فرائصه / انفرجت أساريره / ضرب كفًا بكف / شد على يده / شد من أزره / قلّم أظافره / كسر شوكته / ذاق الأمرين / شق عصا الطاعة / استأصل شأفته / قطع دابره / يسترق السمع / عفا عليه الزمن / لا يسمن ولا يغني من جوع / أخذه برمته / أخذه بحذافيره / بالقض والقضيض / دونه خرط القتاد / منشرح الصدر / لا محل له من الإعراب ... إلخ).

فهذه طائفة من التعبيرات الاصطلاحية المغلقة التي تسمح بشيء من المطابقة في النواحي التالية:

1- الشخص الناطق بها (متكلم ـ مخاطب ـ غائب)، ونأخذ ـ كالعادة ـ مجموعة من هذه التعبيرات أمثلة لتوضيح هذه السمة:

(طاش سهمه) ـــ الأصل.

أ- (طاش سهمي) ـــ متكلم .

ب- (طاش سهمك) ـــ مخاطب.

ج- (طاش سهمه / سهمها) غائب.

(ارتعدت فرائصه) ـــ الأصل.

أ- (ارتعدت فرائصي / فرائصنا) ـــ متكلم.

ب- (ارتعدت فرائصك / فرائصكم / فرائصكما / فرائصكن) مخاطب.

ج- ارتعدت فرائصه / فرائصها / فرائصهما / فرائصهم / فرائصهن) غائب.

2- العدد (مفرد – مثنى – جمع):

(ركب رأسه) ـــ الأصل.

أ- (ركب رأسه / ركبت رأسها / ركبتُ رأسي / ركبتَ رأسك) مفرد.

ب- (ركبا رأسيهما / ركبتا رأسيهما) مثنى.

ج- (ركبوا رؤوسهم / ركبنا رؤوسنا / ركبن رؤوسهن) جمع.

(رجع بخفي حنين) ـــ الأصل.

أ- (رجع / رجعتُ / رجعتَ / رجعتْ بخفي حنين) مفرد.

ب- (رجعا / رجعتا بخفي حنين) مثنى.

ج- (رجعوا / رجعنا / رجعن بخفي حنين) جمع.

3- النوع (مذكر - مؤنث):

(كسر شوكته) ـــ الأصل.

أ- (كسر / كسرا / كسروا / كسرتا شوكته).

(كسر شوكتها / كسروا / كسرتا شوكتهم) مذكر.

ب- (كسرتْ / كسرتا / كسرن شوكتها) مؤنث.

(قطب حاجبيه) ـــ الأصل.

أ- (قطبتُ حاجبي / قطبتَ حاجبيك) مذكر.

ب- (قطبتْ حاجبيها / قطبتِ حاجبيك) مؤنث .

هذا بالإضافة إلى قبولها نوعًا من التصريف الزمني (ماض ـ مضارع ـ أمر ـ اسم فاعل ـ اسم مفعول)، كونها تعبيرات ذات نمط فعلي، حيث إنّ كثيرًا من هذه التعبيرات تقبل مثل هذا النوع من التصريف حسب الأحوال، مثل:

(رابط الجأش) ـــ الأصل (اسم فاعل).

نستطيع أن نقول:

يربط الجأش ـــ مضارع

اربط الجأش ـــ أمر

ربط الجأش ـــ ماض

مربوط الجأش ـــ اسم مفعول

ويقاس ذلك ـ كذلك ـ على كل التعبيرات المذكورة تحت هذا المسمى (التعبيرات الاصطلاحية المغلقة).

ثانيًا: التعبيرات الاصطلاحية المرنة:

وعرفنا عنها أنها تأخذ أشكالًا مختلفة، وأتناول هذه الأشكال كظواهر (طارئة) على بنية التعبيرات الاصطلاحية، وهذه الأشكال (الظواهر) كما يلي:

1- التعديل الداخلي: (إدخال أو حشر في نص التعبير):

قد يتقبل التعبير الاصطلاحي نوعًا من التعديل الداخلي في تركيبه الذي لا يغير معناه الاصطلاحي، بالرغم من فقدانه تماسكه وبنيته الأصلية، ويلجأ مستخدم التعبير إلى مثل هذا التعديل لإعطاء تأثير خاص يريده[1] كما في الأمثلة التالية:

(بينهما ما صنع الحداد) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التعديل:

«بين البلدين ما صنع الحداد».

(تنفس الصعداء) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التعديل:

«تخلى بوش عن سياسته الانعزالية وتنفس القادة الأجانب الصعداء».

2- تغيير أحد عناصر التعبير بعنصر آخر (مرادف أو غيره):

يتقبل التعبير الاصطلاحي ـ كذلك ـ التغيير في أحد عناصره لأغراض خاصة كالسخرية والانتقاد، أو لعكس معنى التعبير، حتى أنّ مستخدم اللغة يذهب إلى أبعد من ذلك سعيًا وراء

(1) حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 126.

تأثيرات مفاجئة وغير اعتيادية، وكل ذلك مقيد ـ كما أشرنا سابقًا ـ دون المساس بمضمون التعبير الأصلي ومن هذه التغييرات على سبيل المثال ما يلي:

أ- تغيير أحد عناصر التعبير بعنصر آخر مرادف:

(بين شقي الرحى) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(بين فكي الرحى).

(شقي = فكي).

(بين ليلة وضحاها) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(بين عشية وضحاها).

(ليلة = عشية).

(بين يوم وليلة).

(ضحاها = يوم).

(تؤتي أكلها) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التعديل:

(تؤتي ثمارها).

(أكلها = ثمارها).

(خالي الوفاض) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(خاوي الوفاض).

(خالي = خاوي).

(في طرفة عين) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(في غمضة عين).

(طرفة = غمضة).

(مدّ له يد العون) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(مدّ له يد المساعدة).

(العون = المساعدة).

ب- تغيير أحد عناصر التعبير بعنصر آخر غير مرادف:

(أدلى بدلوه) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(أدلى بصوته).

(دلوه = صوته).

(أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

«أُكلت يوم أُكل الشعب الفلسطيني».

(الثور الأبيض = الشعب الفلسطيني).

(القشة التي قصمت ظهر البعير) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(القشة التي قصمت ظهر الناس).

(البعير = الناس).

(كأن على رؤوسهم الطير) ـــ الأصل.

التي تصبح بعد التغيير:

(حط على رؤوسهم الطير).

(كأن = حط).

3- الاستغناء عن جزء معين من التعبير الاصطلاحي:

قد تتقبل بعض التعبيرات الاصطلاحية ـ خصوصًا تلك التي تكون على شكل جملة كاملة، ولا سيما الأمثال منها، والأقوال المأثورة ـ قد تتقبل الاختصار أو التقليص مع الاحتفاظ بمعناها الأساسي[1] وهذا الاختصار مقيد ـ كما ذكرنا سابقًا ـ وليس حذفًا عشوائيًا اعتباطيًا، بحيث نستطيع أن نفهم المغزى كاملًا دون أي احتمالات أو لبس.

ومن هذه التعبيرات على سبيل المثال ما يلي:

(أهل مكة أدرى بشعابها) ـــ الأصل.

من الممكن أن تصبح:

(أهل مكة ...).

(تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن) ـــ الأصل.

من الممكن أن تصبح:

(تأتي الرياح ...).

(تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) ـــ الأصل.

من الممكن أن تصبح:

(تسمع بالمعيدي ...).

(1) ينظر المرجع نفسه، ص 112.

(من شابه أباه فما ظلم) ـــ الأصل.

من الممكن أن تصبح:

(من شابه أباه ...).

(هل يصلح العطار ما أفسد الدهر).

من الممكن أن تصبح:

(هل يصلح العطار ..).

وقد لوحظ على هذا النوع من التعبيرات أنّ الجزء المحذوف لا يكون من القسم الأول للتعبير؛ بل من جزئه الأخير، حيث يصعب القول مثلًا: (أدرى بشعابها، أو فما ظلم، أو ما أفسد الدهر ... إلخ).

ويعتمد طول الجزء المحذوف على نوعية التعبير نفسه، وما يسمح به المعنى، كما أنّ اختيار الجزء المحذوف ليس عشوائيًا ـ كما أشرنا سابقًا ـ ففي حين تم استبقاء الكلمتين الأوليين في التعبير الأول والثاني، كان الجزء المتبقي أطول في التعبيرين الثالث والرابع.

4- عكس تركيب التعبير (التقديم والتأخير):

من الممكن قلب مكونات التعبير الاصطلاحي إذا كان مستخدم التعبير يريد أن يعبر عن عكس المفهوم الوارد في التعبير الاصطلاحي بشيء من التهكم أو النقد اللاذع[1]، أو قد يكون لأسباب تركيبية أيضًا، ومن هذه التعبيرات على سبيل المثال ما يلي:

(أكل عليه الدهر وشرب) ـــ الأصل.

من الممكن أن تكون:

(شرب عليه الدهر وأكل).

(1) المرجع نفسه، ص 52.

ورد هذا التعبير معكوسًا في عجز بيت للنابغة الجعدي[1]:

سألتني عـن أنـاس هلكوا شرب الدهر عليهم وأكل

وما عكسه (الشاعر) لهذا التعبير إلا للضرورة الشعرية (القافية)

(تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) ـــ الأصل.

من الممكن أن تكون:

أ- (ترى المعيدي خير من أن تسمعه).

أليس في عكس هذا التعبير دلالة على من يعجبك منظره ولا يروق لك كلامه ؟ (ذم).

ب- (ترى المعيدي خير أن تسمع عنه)

للدلالة على من كانت صورته ومنظره أجمل مما سمعت عنه من الآخرين . (مدح)

(اللتيا والتي) ـــ الأصل.

من الممكن أن تكون:

(عثرت على الشنطة المناسبة بعد التي واللتيا).

وخلاصة القول إن هناك نوعين من الظواهر التركيبية للتعبيرات الاصطلاحية الأصيلة هما:

1- ظواهر تركيبية أصلية.

2- ظواهر تركيبية طارئة، وهي التعبيرات المرنة تركيبيًا (التي تسمح بالعديد من أشكال التعديل والتغيير والتبديل.

وقد تنبه اللغوي بروس فريزر (1970) Bruce fraser، لهذه التغييرات وتفاوتها فقسم التعبيرات الاصطلاحية إلى سبعة أقسام بناءً على هذه التغييرات، وقد وضع هذه الأقسام على

(1) البيت ذكره ابن منظور: في لسان العرب، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ج 1، ص 181.

شكل هرمي يبأ من أسفل إلى أعلى، وتبدأ قاعدة الهرم بالقسم الأول من التعبيرات التي لا تسمح بأي نوع من أنواع التغيير وهي التعبيرات المتجمدة، وينتهي الهرم بالقسم السابع من التعبيرات في أعلى الهرم وهي التي تسمح بإمكانيات تغييريه متعددة .[1]

وقد أجرى الباحث بعض التعديل على هذا السلم الهرمي بما يتلاءم مع التعبيرات الاصطلاحية العربية، وقبل الشروع في التعليق على هذا السلم ينبغي لنا أن نعرف التصنيف الذي وضعه Fraser حتى نعرف ما يتلاءم مع تركيب التعبير الاصطلاحي، وقدرته على التحويل من عدمه، ولنعرف كذلك التعديلات التي أجراها الباحث على بعض درجات هذا السلم، فكان التصنيف على النحو التالي:[2]

د . 6 مطلق الحرية في التغيير والتحوير Unrestricted

د . 5 إعادة تشكيل Reconstitution

د . 4 تقليص Extraction

د . 3 تغيير أو تحوير Permutation

د . 2 إدخال أو حشر في نص التعبير Insertion

د . 1 التحويل إلى اسم الفاعل Adjunction

د . صفر جمود Completely frozen

(1) نقلًا عن كريم حسام الدين: التعبير الاصطلاحي، مرجع سابق، ص ص 40 – 41.

(2) ينظر هذا التصنيف في حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 28.
يعد التحويل إلى اسم الفاعل في العربية أحد أنواع الخوالف وليس تغييرًا، فهو كالتذكير والتأنيث والجمع والإفراد، وغيرها من الظواهر التي تتقبلها التعبيرات الاصطلاحية المرنة والمغلقة على حد سواء.

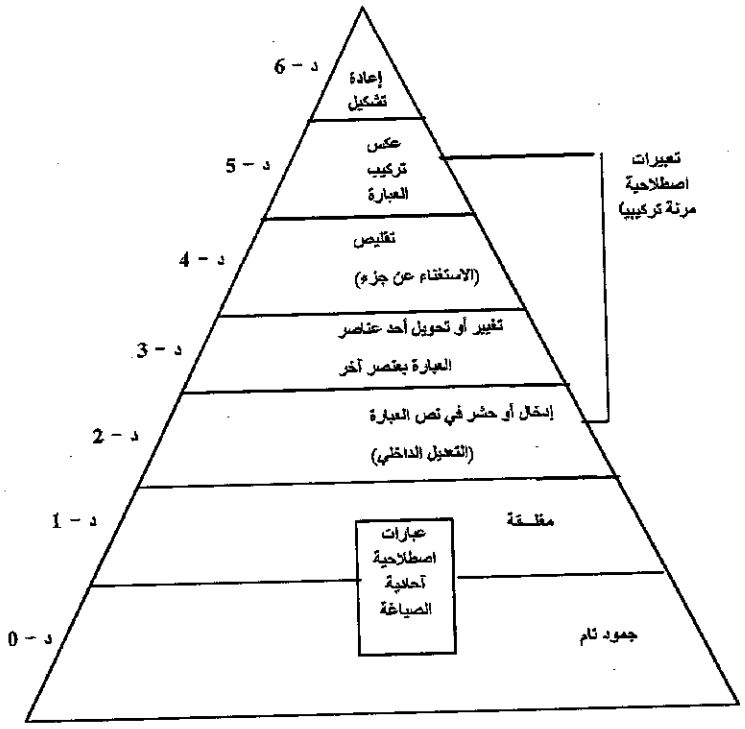

السلم الهرمي المعدل

ويمكن التعليق على السلم المعدل المتدرج ـ لتبرير هذا التعديل ـ بدءًا من الأسفل بحيث فصل الباحث بين التعبيرات الجامدة والتعبيرات المغلقة، فكلا النوعين سُجلا تحت مسمّى واحد عند مصمم الهرم، وأعتقد أنّ ذلك لا يتلاءم مع تعبيراتنا الاصطلاحية العربية الأصلية.

كما رأى الباحث شطب القسم الذي يحمل الرقم (1) من السلم الهرمي (التحويل إلى اسم الفاعل)! حيث إنّ هذا لا يعد تغيرًا جوهريًا في بنية التعبيرات الاصطلاحية العربية تحديدًا دون تعميم ذات النتيجة على لغات أخر، فمن الممكن أن تدخل هذه المطابقة على بنية التعبيرات الاصطلاحية المغلقة دون أن نقول عن هذه التعبيرات إنها مرنة، ونأخذ على سبيل المثال – هذه الطائفة من التعبيرات (التي عرفنا أنها مغلقة) ونحول الفعل بها إلى اسم فاعل دون أن يؤثر هذا التحويل على بنية هذه التعبيرات الأصلية مثل:

1- (رفع عقيرته) ـ تعبير مغلق ـ الأصل.

فمن الممكن أن نقول:

(رافع عقيرته).

2- (طعن في السن) ـــ الأصل.

فمن الممكن أن نقول:

(طاعن في السن).

3- (قلم أظافره) ـــ الأصل.

فمن الممكن أن نقول:

(مقلّم أظافره) ... إلخ.

ويقاس ذلك على كل التعبيرات الاصطلاحية (ذات النمط الفعلي) المسجلة تحت مسمى التعبيرات الاصطلاحية المغلقة.

شطب الباحث القسم الذي يحمل الرقم (6) من السلم الهرمي وهو (مطلق الحرية في التغيير والتحوير)؛ لأنه ليس ثمة تعبير اصطلاحي عربي يمكن تحليله على أساس أنه ينتمي إلى هذا المستوى .. انتهى التعليق.

والناظر إلى التعبيرات الاصطلاحية العربية يجدها تعبيرات مستمدة من مصادر هي انعكاس للموروث الثقافي لهذا المجتمع، ومن هذه المصادر:

أولًا: القرآن الكريم:

يُعد القرآن الكريم موردًا خصبًا للتعبيرات الاصطلاحية، فقد يكون التعبير الاصطلاحي آية أو جزءًا من آية، كما في الأمثلة التالية:

1- «عصا موسى»[1].

(1) البقرة: آية 60، الأعراف: آيتان 117، 160، الشعراء: آية 63، النمل: آية 10، القصص: آية 31.

2- «فأدلى دلوه»[1].

3- «بشق الأنفس»[2].

4- «مرور الكرام» من الآية «وإذا مروا باللغو مروا كراما»[3].

5- «فكان قاب قوسين أو أدنى»[4].

6- «الطامة الكبرى»[5].

7- «مسك الختام» من الآية «ختامه مسك»[6].

8- «لا يسمن ولا يغني من جوع»[7].

ثانيًا: الحديث النبوي الشريف:

لقد حفلت أحاديثه صلى الله عليه وسلم بالتعبيرات التي تحمل معاني ومدلولات غنية بالحكم والمواعظ والإشارات مما جعلها تستخدم في مواقف شتى، وبالتالي اتسمت بالخاصية الاصطلاحية الأمر الذي مكننا من اللجوء إليها في مناسبات عدة لنقتبس منها أجزاءً أو نأتي ببعضها كما جاء على لسانه ﷺ.

ومن هذه التعبيرات ما يلي:

«أضعف الإيمان».

«رفقًا بالقوارير».

«خضراء الدمن».

(1) يوسف: آية 19.
(2) النحل: آية 7.
(3) الفرقان: آية 72.
(4) النجم: آية 9.
(5) النازعات: آية 34).
(6) المطففين: آية 26).
(7) الغاشية: آية 7.

«اليد العليا».

«عضّوا عليه بالنواجذ» ... إلخ.

ثالثًا: الشعر العربي:

يقال عن الشعر ديوان العرب، وقد لعب دورًا مهمًا لا سيما في مجالات المديح والهجاء والفخر والحكم، والذي يعد بحق معينًا لا ينضب للعديد من التعبيرات الاصطلاحية والأمثال السائرة، وهذا يعني بالضرورة وجود العديد من أبيات الشعر أو أجزاء منها التي تحولت بمدلولاتها إلى تعبيرات اصطلاحية يجري استخدامها في حياتنا اليومية قديمها وحديثها[1].

ومن هذه التعبيرات أمثلة على ذلك ما يلي:

1- **(صفر اليدين)**

فهي جزء من عجز بيت لحاتم الطائي قال فيه[2]:

أنّ ما أهلكني لم يكن ضرني ... وأنّ يدي، بما بخلت به صفر.

2- **(ما أشبه الليلة بالبارحة)**

فهي كما نعرف عجز بيت لطرفة بن العبد قال فيه[3]:

كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحة.

3- **(مهيض الجناح)**

فهي أيضًا جزء من عجز بيت للخنساء قالت فيه[4]:

بكت عيني وحق لها العويل ... وهاض جناحي الحدث الجليل.

(1) ينظر حسين قويدر: العبارة الاصطلاحية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 66.

(2) ديوانه، تحقيق محمد قميحة، منشورات دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية، بيروت، 1986، ص 42 .

(3) ديوانه، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1978، ص 17.

(4) ديوانها، دراسة وتحقيق إبراهيم عوضين، مكتبة السعادة، الطبعة الأولى، 1986، ص 4 .

وبالإضافة إلى هذه المصادر، يلاحظ أيضًا أنّ هذه التعبيرات ذات صور بدوية مستمدة من البيئة العربية، فنجد منها صور الكرم، والشجاعة، والحياء ... إلخ.

وهذا غيظ من فيض إذ تتضح تأثر التعبيرات الاصطلاحية بالموروث الثقافي التراثي (الدين الإسلامي) وهو المكون الثقافي الأبرز في تاريخ الأمة العربية، بالإضافة إلى السياق الاجتماعي من عادات وتقاليد وبيئة، التي تعد ـ كما قلنا ـ أهم مصدر لهذه التعبيرات، ويعد الخروج عنها أو التبديل فيها سواء أكان هذا الخروج سلوكيًا أم تركيبيًا نوعًا من التحريف والتشويه والشذوذ عن القواعد العامة لهذه المصادر، بحيث أصبح التقيد بها إلزاميًا في كثير من الأحيان، ولا تسمح إلا بالنزر اليسير من تلك الظواهر التركيبية الطارئة.